

العلاقة بين بغداد والقاهرة

في عهد الفوالم

للأستاذ عبد المنعم ماجد



لم تكن هناك فروق تميز أهل البيت من بني العباس وبني عليّ ، حتى وقت قيام الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان الذي جمع في يده سلطة قوية وحول الخلافة من ساططها وديمقراطيتها إلى نوع من الأرستقراطية التعجرفة المتمصبة ، لذلك أطلق العلويون على أنفسهم لقب الشيعة وعُرف أعداؤهم بإسم بني أمية . أما إسم أهل السنة فلم يكن له وجود ولم يظهر إلا بعد قيام الدولة العباسية . وبالرغم من أن العباسيين لم يكونوا قد طالبوا بالخلافة لأنفسهم أيام الخلفاء الراشدين إلا أنه أثناء قيام الدولة الأموية في أواخر عهدنا التجأوا إلى الدعوة للرضا من آل محمد ، أى من يقع عليه اختيار آل البيت يصير هو الخليفة . وقد وجدت هذه الدعوة أذناً صاغية وقبولاً من الشيعة ، وذلك لأنهم كانوا يأملون أن تؤول الدعوة إلى بني عليّ ، وذلك لأن علياً كان أفضل من العباس باعتراق معظم أهل البيت لأنه زوج بنت رسول الله وسيرته وسبقه في الاسلام . أما العباس فلم تكن له سابقة ولا سيرة ... ثم بجانب هذا لم يكن العباس ولا ابنه عبد الله قد طالبوا بالخلافة ... ولكن لما نجحت الدعوة التي بشر بها أبو مسلم الخراساني في خراسان ، وانتهت بقلب الخلافة الأموية والإجهاز عليها في موقعة الزاب حوّلوا الخلافة لأنفسهم وأقصوا الشيعة عنها وادعوا أن العم أحق بالخلافة من ابن العم ، ولذلك كانوا يرون أى فتى يجي من غير ناحية العلويين سهل الرثق . أما هؤلاء أبناء عليّ فهم الخصم الألد الذي يخاف جانبه ويخشى بأسه ، ولذلك طاردوهم ، وشردوهم ، وضيقوا عليهم الخناق .

إزاء هذا التعت الذي ضاقوا به ذرعاً أخذ العلويون من أبناء فاطمة يدعون لأنفسهم سراً ؛ ليستردوا هذا الحق المنصوب

ويقتضوا على هؤلاء الذين أقصوهم عن حقهم الشرعي في الخلافة ، فلما ضاقت بهم وبدعوتهم أرض المشرق أنجسوا للمغرب حيث كان مركز الخلافة ضعيفاً ، ونجحوا في تأسيس دولة هناك ، وكان هذا مبدأ الاحتكاك الفعلي بينهم وبين العباسيين ، وأول ضربة توجه للخلافة العباسية في جزء من أملاكها في أفريقيا من أبناء فاطمة بالذات . . . ولن تكون الضربة الأخيرة ... !

لأن غرضهم الأساسي كان القضاء على الخلافة العباسية التي اغتصبت ملكهم وشردتهم وطاردتهم . هذا فضلاً عن رغبتهم في نشر دعوتهم ونظرياتهم في الدين . لذلك شمر المزم لدين الله الفاطمي سيفه في وجه العباسيين ، وطمن الخلافة في مصر والشام والحجاز واليمن ، ومنع الناس في هذه الأرجاء ليس السواد شمار العباسيين ، وخطب له ولخلفائه على المنابر ، وارتفع صوت المؤذن منادياً : « حتى على خير العمل » ، وهو آذان خاص بالفاطميين كما ظهر بطبيعة الحال كفاح وتنافس وحزازات بين الدولتين شأن كل قوتين تمتد كل منهما أنها أحق بالخلافة والسلطان دون الأخرى . وسنلخص العلاقة بين هاتين القوتين المتزاحمتين في ثلاث مراحل :

الأولى — تبدأ حيث عاصرت فيها الدولة الفاطمية عظماء بني بويه وهم التربعون في الحكم في بغداد والتغلبون على الخلافة العباسية فيها .

الثانية — التي عاصرت فيها الدولة الفاطمية البويهيين إبان ضعفهم .

الثالثة — التي عاصرت فيها الدولة الفاطمية الدولة السلجوقية التي انتزعت الحكم من الدولة البويهية .

الفقرة الأولى :

تبدأ من سنة ٢٥٨ هـ وهي السنة التي دخل فيها الفوالم مصر إلى سنة ٣٧٢ هـ أى إلى موت عضد الدولة البويهى آخر عظماء البويهيين .. استولى الفاطميون على مصر والشام ومست حدود الدولة الفاطمية أملاك العباسيين التي كانت آنذاك تحت رحمة البويهيين وهم الذين ملكوا زمام الدولة وصارت بيدهم

من العزيز الفاطمي ردأ على رسالة عضد الدولة فيها يشكره على ولائه وخضوعه ، وقد انتهز عضد الدولة هذه الفرصة ووصول مندوب العزيز بهذا المكتوب ليُذلل الخلافة السُنية فأمر الطبع وهو الخليفة السني آنذاك بالخروج لاستقباله . بل تمادى عضد الدولة وقرأ الرسالة مع ما تحمله من خضوع سافر وولاء ظاهر للفواطم في حضرته حتى دهش أبو المحاسن وتعجب ، وإن كان ليس هناك ما يدعو للعجب لاجتماع البويهيين والفواطم في رمز واحد وإمام واحد هو « علي » . ويجمل بنا أن نمرض بعض ما جاء في هذه الرسالة ففيها « ... إن رسولك وصل إلى حفرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك فأدى ما تحمله من إخلاصك في ولاه أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته وعبتك لأبائه الطائمين الهادين المهديين .. ثم ذكر كلاماً طويلاً في المعنى » . أما بقية الكتاب فيستدل منها على أن العلاقة لم تقف عند تبادل عبارات المودة والصداقة بل تعدتها إلى تبادل الرأي والمشورة فيما يحيط بهما في العالم الإسلامي من خطر خارجي .

هذه هي مظاهر العلاقة الرسمية بين بغداد والقاهرة .. وهناك مظاهر أخرى لها تتمثل في اشتراك أهل مصر من الشيعة وبغداد في بعض الأعياد الدينية مثل النوح في أيام عاشوراء ، وهذه الظاهرة استمرت منذ أن استقر البويهيون في العراق ...

هذه هي مظاهر التفاهم بين بغداد والقاهرة ، والتي كانت نتيجة للرابطة التي بينهما كما ذكرت نخلقت هذه المعاملة الحسنة كما أنها هي التي منعت كلا من الفاطميين والبويهيين على أن يقضى الواحد منهما على الآخر ، وذلك بالرغم من أن غرض الفواطم الرئيسي كان تدمير العباسيين المنتصبين للخلافة ، ولكنهم لما وجدوا تشيعاً في بغداد مالكا لها أحجموا عن اتخاذ هذه الخطوة العدائية . ولكن مع هذا لم تكن العلاقة صافية تماماً في هذه الفترة ، لأن وجود قوتين متواجهتين يؤدي حتماً إلى نوع من التنافس قد يتمدى إلى حوادث أخرى وبخاصة في أول هذه الفترة ، ولكن رغم تقلب الحوادث سرعان ما تعود الأمور إلى مجراها بحكم اتفاقهم في البسداء ؛ فثلا ترى عز الدولة باختيار قد أمد القرامطة بالمال والصلاح عند ما تقدم الفواطم وكادت نارهم تلتفح وجه العراق وقد كان مدفوعاً

مقاليد الأمور منذ سنة ٣٣٤ هـ أر سنة ٩٤٥ م . فامهم يقرون باسم الخليفة العباسي في خطب الساجد ، وتضرب الدفوف أمام القصر الملكي البويهي في الصُحى والمشى ، وهذا تكريم لم يكن يحظى به غير الخليفة من قبل ، والبويهيون متشيعون كالفاطميين بل من الشيعة الغالية التي لا تعترف بالخلافة العباسية رغم سيطرتها عليها . بل وتعتبرها منتصبة من الملويين الذين هم أحق بها في نظرهم ، ولذلك في مناسبات عدة يعملون داعماً على إذلال الخليفة العباسي وإشماره ببطلان خلافته ؛ فثلا الخليفة القاهر عزل والمستكني سمل والطائع أهين ، والمطيع عزل حتى قال ت . و . أرنولد في كتابه الخلافة :

“ The lowest depths of degradation that the Caliphate of Bayhded had ever reached ”

ومعنى هذا أن الفواطم حينما امتد ملكهم شرقاً وجدوا تشيعاً في بغداد ، ومركز الخلافة والأراضي الخاضعة لها في العراق والمشرق ، وأن صاحب هذا التشيع هو صاحب الأمر والنهي ، وكان هذا بطبيعة الحال من شأنه أن يقرب بين الفواطم في مصر والسيطرين على بغداد أصحاب الأمر والنهي ، وأن يوجد نوعاً من العلاقات الحسنة بينهما ، وإن كانت العلاقة الطيبة تظهر من ناحية البويهيين أكثر جلاء من ظهورها من ناحية الفواطم ، وكان هذا طبيعياً لأن الخليفة الفاطمي كان يُعد في نظرهم إمامهم والرمز الروحي لهم ، وهو من النعمة الطاهرة التي يدينون بنحلتهما لها . نلمس هذه الروح والميل الصريح نحو الفواطم مما حاوله ممز الدولة البويهي بالكشف عما في قلبه بالبيعة للخليفة الفاطمي لولا أن أشار عليه أصحاب النظرة البعيدة من أتباعه بتركه هذا الأمر خوفاً على سلطانه وسلطانهم ، ونفوذه ونفوذهم^(١) فانخوف هو الحائل الوحيد في سبيل إعلان الفاطميين أئمة عليهم ؛ ومع ذلك فالخضوع الروحي للفواطم كان يملئه اللأ في كل مكان ونحت سمع الخلافة السنية وبصرها ؛ فبدأ الاحتفاظ بسطوتهم في بغداد لا يتناقى أبداً مع إظهار ولائهم للفاطميين ، ولعل العلاقة الرسمية لم تكن من القوة والصفاء مثلما كانت في عهد عضد الدولة البويهي . وقد احتفظ لنا أبو المحاسن^(٢) رسالة

(١) ابن الأثير ص ١٧٧ الجزء الثامن

(٢) الجزء الرابع النجوم الزاهرة ص ١٢١

لا تأخذ هذه الخطوة خوفاً على ملكه ، ولكن سرعان ما عادت الحال إلى الصفاء بعد ذلك . إذ ظهرت بأجلى صورها في عهد ممر الدولة وعضد الدولة .

الفترة الثانية:

تأتى هذه الفترة بعد عضد الدولة إلى نهاية الدولة البويهية . كان طبيعياً أن العلاقات الحسنة بين بغداد والقاهرة والتي استمرت على أيام صفاء ، وبلغت أقصاها في عهد ممر الدولة ، وعضد الدولة ألا تستمر إلى الأبد ، لأن السلطان البويهى الذى كان عاملاً مهماً على التفاهم بدأ يضعف ، أصبح الخلفاء العباسيون قادرين على التدخل في أمور الدولة والسياسة وانهزوا فرصة هذا الضعف لظهور ما يكون من عواطف البُغض والحقد للدولة الفاطمية . لذلك يجب أن نعتبر أن العلاقة في هذه الفترة على نقيض الفترة السابقة إذ اتخذت مظهراً آخر من القوة والكفاح وظهرت نيات الطرفين وانحمة بالبنفاء . ولعل أول مظهر لاسترداد الخلفاء العباسيين سلطنتهم المفقود هو منبهم (كما يذكر أبو الحسن) الرافضة من أهل الكرخ والطاق من النوح في يوم عاشوراء ومن تعليق السوح ، ولكن هذا التحرر نوعاً من قيود البويهيين لا يُعنى أن الخليفة العباسى قد أطلقت يده أو أن في استطاعته أن يعمل شيئاً إيجابياً فهذا من المحال . لأن الخلافة العباسية كانت في أخريات أيامها عاجزة عن كل هجوم إيجابى على من قاموم سلطنتهم وإن كانت لا تعجز عن الهجوم بسلح آخر هو سلاح الكلام ، والطنن في نسبهم إلى فاطمة ، خاصة أن الدولة تأسست على هذا الإدعاء ، وكانت دعوتهم قبل أن ينشرها داعيتهم أبو عبد الله الشيبى سرية ، وذلك خوفاً على أعتهم المستورين من ولاية العباسيين في ذلك الوقت فساعد هذا الجو على الطمن في الظلام ، ولذلك صدر محضران الأول في سنة ٤٠٢ هـ في عهد القادر بالله المعاصر للخليفة الفاطمى المستنصر وذلك بعد مضى قرن على إنشاء الدولة الفاطمية ، وقد قرئت هذه المحاضر المملوءة بالقدح في نسب الفاطميين ونسبهم

إلى بحرس ، في المساجد وأعلنت للناس . ولا يبنى هذا التجريح في نسب الفاطميين بعد قرن أنه لم يكن موجوداً قبل ذلك أى قبل المحاضر فقد أيد هذا الطمن في نسبهم بعض المؤرخين أمثال ابن خلدون ، وأما سبب ظهور هذا الطمن بعد مضى قرن فيتحصن كما يظهر للأستاذ الأمير مامور في كتابه :

“Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs”

- ١ - الكراهة المتأصلة في العباسية من نسل على وفاطمة .
- ٢ - المرارة من مقاسمتهم أملاكهم وذلك حينما هددوا سلطانهم .
- ٣ - الحقد الذى تولد من منافسة القاهرة قاعدة الفواطم لبغداد قاعدة العباسيين كركر للعلم والثقافة والفن والأدب الإسلامى
- ٤ - الخوف من امتداد سلطانهم لا بقى في أيديهم .
- ٥ - الفرصة مواتية لاختلاف العلويين وعدم تضامهم . فهذه هي الاثنا عشرية والفواطم والأدارسة .
- ٦ - إمكان التأثير على بعض العلويين وضمهم لجانبهم .
- ٧ - كذلك البويهيين لا يمانعون ؛ لأنه قد نالهم الضعف فقدروا الخطر الفاطمى حتى قدره .
- ٨ - إمكان إثارة العناصر السنية التى توجد في الأجزاء التى امتلكها الفاطميون .
- ٩ - إعلان هذه المحاضر في مثل هذه الظروف يضمن نفوذ الفواطم ، ومن ناحية ثانية فهو لا ضرر منه على العباسيين .
- ١٠ - ملاءمة الوقت لوجود خليفة مكروه وهو الحاكم على أية حال كتب المحضران ، وحرص الخليفتان على أن يقع عليهما كبار العلويين والقضاة والفقهاء وذلك حتى يحوز الطمن بمضى الأهمية ولا يتسرب الشك إلى الناس ويذكر مامور في كتابه رأى بعض المؤرخين في المحاضر ؛ فثلاً قال جرايف في دائرة المعارف الإسلامية « لم يظهر الشك في نسب الفاطميين إلا في وقت متأخر ، وكما يظهر بوضوح أراد العباسيون اتخاذ أى وسيلة شرعية للقضاء على منافسيهم الخطيرين » .